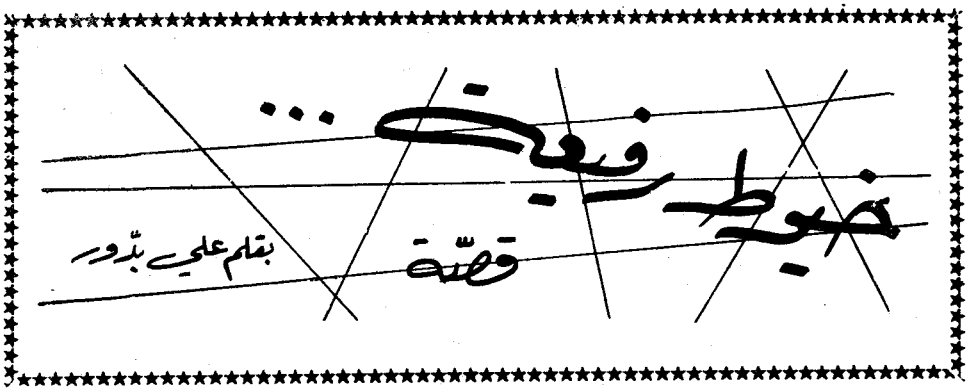

مشكلة الفراغ في حلب أخذت تثير نفوس الشباب في هـذه الايام . اذ اين يمكن ان يذهب المرء اذا لم تعجبه السينما ـ وكـذلك كافة البرامج الليلية في الاندية ، حيث يكثر الضوء الاحمر الى درجة يشعر فيها ان الجمهور كله وكأنه في مباراة لمصارعة الثيران . ويثقل ذلك الى حد كبير على الشباب . اذ لا يعقل ان يلقى الشاب فتاة ويحدثها ، اذا كان يريد ذلك خارج ضيق لا يتعدى ما يعرف من فتيات العائلة او صديقاتهن . وتزداد مشكلة الفراغ ، اثقالا على النفس اذا وجد الشاب زميلا له . عندئذ تغدو العلة ثقيلة ، وتضحى الشكوى مضاعفة .

وفي مساء كل يوم تمتلىء الشوارع بالسيارات الجديدة التي خرجت تتمتع بالعطلة . وكذلك فان من ركبوا فيها يبدون وقد صفروا عشرة اعوام . الدفء والحنان الغامر وكل المباهج تتجمع في لحظات نحسبها الدهر طولا ، تنشر على ثغور بعض الرجال ، وبعض النساء ، ابتسامة اين منها تفتح الوردة العذراء على عقد من لؤلؤ الندى . وفي مثل هذا الجو العابق بالعواطف والاخيلة ، التي تجسم حرمان الشبان ، رأيت صديقي هشام ، وهو قلق لهذا الفراغ الذي يصيب حياة الانسان، عندما يحس انه يريد ان يسمع صوت المرأة ، وان يكون هذا الصوت موجها له وليس الى احد سواه . ووجدتني أسأل هشام :

ـ ألا تريد ان تسمع صوت الانثى يا هشام ؟

فاجابني :

ـ دائما .. ولكن اين ؟

قلت ببرود :

ـ في السموات .. ما رأيك ؟

ولكنه بعد تفكير ، قال وقد لبس ثوب الوحي :

ـ انني أعرف خياطة . وللخياطة فتاتان جميلتان . فما رأيك ؟

قلت بعد ان فركت كفي .. طلبا للدفء بينما كانت السماء قـد بدأت تمطر :

ـ فتاتان .. وام تمتهن الخياطة .. فرصة عظيمة ، لا تفوت !!

كانت الطريق الى دار الخياطة خالية من المارة . السماء تمطر ، والارض تبتلع الماء المتدفق . والناس في سرعة من أمرهم ، والاضواء البيضاء منبعثة من مئات النوافذ على جانبي الطريق . ان هذه الغرف تضم مئات العائلات السعيدة . الزوج وزوجه واولاده . والحنان الذي لا ينتهي . والاضواء البيضاء تغمرهم وتبعث ببعض المسرة الى الشارع ، تنبه المارة امثالنا الى ان السعادة ، داخل الغرف الدافئة وليس في الشوارع المقفرة .. حتى ولو كانت هذه الشوارع ممتلئة بأفواج الحسان ، وكانت الشمس تزيد من التماع الجمال في وجوه النساء والفتيات الجميلات !!

ووضع هشام اصبعه على زر الجرس . خيل الينا اول الامر ان الخياطة في سهرة . كانت الشبابيك مظلمة ، ولكننا تعجلنا الظن ، اذ سرعان ما اضيء الصالون ، وفتح الباب . وكانت احدى الفتاتين هي التي فتحته .. وسرعان ما صاحت :

ـ هشام يا أماه .. انه هشام .

وعلا صياح الام من الداخل :

ـ تفضل يا استاذ هشام .. انني اصفف شعري .. تفضل .

ولكن هشام اراد ان يتمنع بعض الشيء :

ـ لن ادخل . اننا مارون مصادفة . وقد أحببت ان اسأل عنكم أنا وصديقي .

فأعادت الام جملتها التقليدية :

ـ تفضلوا جميعا . انني اصفف شعري ولا استطيع القيام .

ودفعت هشام الى الداخل دون ان تراني الفتاة . كنت أخشى ان تكف السيدة عن ترحيبها ، وينصرف هشام خاويا فنحرم معا ، من سماع صوت الانثى اذا كان القدر قد قضى معاقبتنا فلا نملكه .

كانت الغرفة صغيرة ، والام جالسة على صندوق خشبي ستر بقطيفة حمراء . وامامها مرآة متعبة ، فبدا لي وجه السيدة متعبا . ولكن شعرها الاسود اللامع كان يقاوم تأثير التجعدات في وجهها . اما الفتاة التي وقفت تصفف شعر الام ، فقد كانت فتاة جميلة حقا .. بيضاء ، سوداء العينين .. ناعمة البشرة ، ذات قوام متناسق بديع التكوين . وكانت الفتاة الصغرى أقصر من الكبرى ، ولكنها ممتلئة الجسم ، قد لبست ثوبا ضيقا يبرز مفاتنها التي ولدت معها . فأخذت تكبر وتمتد في مختلف الاتجاهات !!

وبدأ هشام حديثه مع السيدة . كان الحديث طويلا ، مملا بعض الشيء ، ولكنه على املاله ، كان يثير الفتاتين فتدخلان معه في نقاش حاد صارخ مثير . وكان هذا الجمال في صوت الانثى الذي نسمعه ، غاية ما نصبو اليه ، وكأن صديقي هشام قد فطن الى حرماننا من صوت الانثى فاراد ان يثير الفتاتين ليدعهما تتكلمان اكبر كمية من الكلمات ، تتغذى بها ارواحنا خلال اسبوع قد يمر دون ان نسمع صوت اية انثى مرغوبة !!

وفجأة خرجت على صوت الفتاتين وضحكات صديقي هشام ، فتاة يبدو عليها القيام من السرير لتوها . كانت الفتاة ذات اربعة

اعوام . سمراء حلوة ، ولكنها بحاجة الى شيء لم أدر ما هو . كانت عيناها تطلعان في الغرفة وكأنها في جو غريب لم تألفه بعد ولم تعرفه . وصاحت الام ضاحكة :

ـ ما الذي أيقظك ياسهير ؟

فردت بلثغة محببة :

ـ الصياح .. يا ماما !

حاولت الفتاة الكبرى ان تعنف سهير ، وأوشكت ان تدخلها غرفتها ثانية الا ان الصغيرة رفضت ، واخذت بالبكاء . ولا أدري ماذا غير جو الغرفة . كنا رغم كل شيء في طرب لا تحده حدود ، ولكن بكاء سهير قد قلب النشوة وأحس كل منا ان سهير تصر على البكاء ، لتبقى معنا ، بينما الفتاة الكبرى تحاول ادخالها .. والام تتوسط فتاتها الكبرى ان تكف عن محاولتها ، وترجو فتاتها الوسطى التي فتحت لنا الباب ، ان تأخذ سهير من بين يدي اختها ، علها تسكت . وقد نجحت المحاولة وعاودت سهير هدوءها ، وسرني انتصار الصراخ على صوت الانثى ، فحاولت ان استميل سهير الي ، فمددت اليها ذراعي .. وصحت من اعماقي :

ـ تعالي يا حلوة .. تعالي ..

هالني ان تركض سهير الي . وان تلتصق بي كأنها قطة اليفة ناعمة الجلد ، قد وجدت ركنها الدافيء بعد طويل فراق . فطبعت على جبين سهير قبلة لم اشعر انها منحت لاي مخلوق اخر في العالم . ذكرتني سهير بفتاة صغيرة في مثل سنها . كانت اختي . قد فقدناها ولها من العمر اربع سنوات ، وحدقت في وجه سهير ، فرأيته يشبه وجه تلك الفتاة التي فقدناها ، ولكن ينقصها ذلك الشيء الذي فطنت اليه في اول لحظة دون ان اقدر على تحديده بالدقة الواجبة .

وتابعنا ، جميعا ، الحديث . كانت الفتاة الكبرى سطحية ، يعجبها في الشاب ان يرتدي الثياب الفاخرة . وكانت الصغرى تحلم بأن تكون كأختها ولكنها لم تنجح بعد . وكانت الام تشجع فتاتيها على المثابرة لصعود سلم الحياة الاجتماعية بخطوات جريئة واسعة مصحوبة بالثياب الغالية والاحذية الانيقة ، وكل ما يفتن لب الفتاة ويسحر نفسها اذا خلت من العقد والهموم .

كان صديقي هشام قد حدثني عن الخياطة والفتيات ونحن في الطريق الى منزلها . فعلمت انها امرأة لا تخيط الثياب فحسب ، اذ احيانا ما تصل ثوب اي رجل بثوب اية امرأة اخرى . وكذلك قد تسمح لبعض الشباب امثال هشام مثلا ، بأن يحدثوا احدى الفتاتين الناضجتين احاديث شائقة عن الازياء والملاهي وروايات السينما ، واذا كان احد الشباب من محبي الهدوء والعزلة ، جلس هو وفتاته في غرفة مستقلة ولا بأس من ان يمسح عن شفتيها بعض ما علق بهما من روج بمنديله او باحدى شفتيه او بكليتهما اذا لم يكن معه المنديل المناسب !!

كانت الجلسة التي جلسناها في الغرفة الصغيرة مقترنة بالصور التي كونتها عن العائلة ، من حديث صديقي هشام عنها قبل الدخول . وكان خيالي كثيرا ما يتصور احد الشباب في خلوة بريئة جدا مع احدى الفتاتين في غرفة مستقلة بمسح عن شفتيها غبار الملل والوحدة بمنديل مناسب . وكنت اريد ان اضحك مع الضاحكين لكل نكتة كان يرويها هشام بينما كان صوت الانثى يصل الى اعماقي كأنه العطر وقد اخذ يتسرب من زجاجة سحرية ، قطرة فقطرة !! ولكن سهير كانت تعطل لي كل هذه الاحلام . فقد التصقت بي فاحسست بدفء بريء لاول مرة في حياتي . اذ فلما كنت أضم طفلة في مثل سنها الى صدري . وانتابتني عاطفتان متناقضتان : عاطفة رقيقة سمحة كانت تفرضها علي سهير .. وما كنت ارجوه لهذه الفتاة من مستقبل بريء وسط هذا الجو الذي كان يبدو متنا رغم مظاهر السعادة والرفاهية التي كانت تلقي بظلالها على كل ركن من اركان هذا المنزل الكبير . اما العاطفة الثانية فكانت عاطفة الشباب الذي حرم من عطف المرأة الصديقة ، وسره ان يسمع صوت المرأة ، صوت الانثى الذي قلما يسمعه في الاسبوع ولو مرة واحدة .

كان صديقي هشام في غاية السعادة . وكانت الام رغم مظاهر الصبابة المفتعلة تحاول ان تشعره انه مرغوب من قبلها . وكان هو ينفعل لذلك ، وخاصة اذا رضيت ان تخيط سترته وثوب اية سيدة جميلة محترمة بخيوط رفيعة . وكانت الفتاتان يتناوبان سؤاله عن ثمن الكرافات ، والخاتم الذهبي الذي زين اصبعه ، والسترة الزاهية . وكان هو بدوره يطري جمالهما واناقتهما ، ويمنيهما بسهرة عامرة ، تحقق كل منهما فيها احلامها الطويلة في الانس والمسرة التي لا تنضب . ولكنني رغم ذلك كنت منقبضا .. فلقد نامت سهير بين يدي او كادت ، وكنت لا اريد ان اشاركهم الضحك او الحديث لئلا تستيقظ . وكانت الاخت الكبرى ترمق سهير وهي في حضني ، من لحظة لاخرى ، بنظرات مشبعة بالغضب والتحدي . وكنت اعجب لهذه الفتاة التي لا تحب اختها . وكانت الام تقول من وقت لآخر اذا ارادت ان تحدثني عن سهير :

ـ ان اختيها تفاران منها . انها فتاة صغيرة ، ولكنهما تفاران منها .

وكان لا بد من ان اقترح على صديقي هشام القيام . لقد مللت رغم انني كنت مشوقا الى جلسة ناعمة اسمع فيها صوت الانثى .

عندما قمنا اسلمت سهير الى امها . فتقبلتها راضية ، ثم حملتها للفتاة الوسطى ودخلت بها غرفة النوم . وبدأنا نصافح افراد العائلة . وكنت اشعر بحرارة كل كف وبحنان كل لمسة تنبع من القلب وتصب عند منتهى الانامل . وخرجنا انا وهشام من الباب الثاني بعد ان دخلنا من الباب الاول . ووجدتني اسأل هشام :

ـ ما هي الحكمة من وجود بابين لهذا المنزل يا هشام ؟

فرد هشام ضاحكا :

ـ لكل باب زبائنه . الا اذا كان هناك زبائن لكليهما . نحن مثلا !!

واردف :

ـ ماذا وجدت في سهير ، حتى حضنتها طيلة الجلسة ؟

فقلت :

ـ لقد سرتني بصمتها وهدوئها البريء اكثر من تكلف اختيها الثرثارتين !!

فانبرى مصححا :

ـ ان سهير ليست اختا للفتاتين . ان امها تدفع للخياطة في كل شهر خمسين ليرة بدل الاقامة . انها فتاة مجهولة الاب .. وامها امرأة عاهرة مباحة لالوف الرجال !!

واحسست انني أطعن في الصميم . عندما علمت ان سهير كانت بحاجة الى شيء لم اتبينه اول الامر ... انه حضن الاب !!

حلب — علي بدور